الأبعاد الفنية للخطاب النثري في حاضرة الأندلس

د. رياض محمد عبد المؤمن*
قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة بني وليد، ليبيا
البريد الإلكتروني (للباحث المرجعي): r.momenali@gmail.com

Artistic dimensions of prose discourse in Andalusia

Dr. Riyadh Mohammed Abdulmumin *
Department of Arabic Language, Faculty of Education, Bani Waleed University, Libya

Received: 21-10-2024; Accepted: 13-12-2024; Published: 21-12-2024

الملخص

تنوعت فنون النثر في العصر الأندلسي، فطرق الكتّاب مختلف الفنون التي كانت واردة في المشرق من خطب، ورسائل، ومناظرات، ومقامات، وزادوا عليها ما احتاجوا إليه في حياتهم اليومية، وتميزوا بقدرتهم على الجمع بين الشعر والنثر في كتاباتهم. وقد بدأت الكتابة في الأندلس بالقليل من الشخصيات المشرقية الأصل التي دخلت واستقرت في الأندلس، وكانت أول الفنون النثرية التي دخلت ولا سيما بعد الفتح، ولحاجتهم لاستثارة النفوس وإذكاء روح الجهاد، وتطور فن الخطابة نظرًا لاختلاف الحياة، فظهرت الخطب المنمقة والمشتملة على أساليب بلاغية وفنية مثل التورية، والجناس وكافة الفنون البلاغية المتنوعة، كل ذلك دعاني إلى التطرق في هذا الفن ومحاولة البحث فيه من خلال هذه الصفحات الموجزة التي اعتمدت فيها على الكتابة بشكل ارتجالي مراعياً فيه السرد التاريخي المعتمد على المنهج الاستنباطي وكذلك المنهج الوصفي من خلال تناول أنواع النثر الفني زمن الأندلس في تقسيماته الزمنية المختلفة، مستشهداً ببعض الخطب التي ذكرتها بعض مصادر الأدب العربي، وقد توصلت في دراستي هذه إلى أن الأندلسيين طوروا الخطاب النثري نتيجة اقتفاء أثر المشارقة في الكتابة مع حرصهم على الاستقلالية في ذلك عن طريق اتباع منهج متفرد في أسلوب الطرح والألفاظ.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، الأندلس، النثر، زمن الفاتحين، المرابطين، ملوك الطوائف، الرسائل الأدبية.

Abstract

The arts of prose varied in the Andalusian era. Writers adopted various arts that were present in the East, such as sermons, letters, debates, and maqamat, and added to them what they needed in their daily lives. They were distinguished by their ability to combine poetry and prose in their writings. Writing in Andalusia began with a few characters of Eastern origin who entered and settled in Andalusia, and it was the first prose art to enter, especially after the conquest, and due to their need to arouse souls and kindle the spirit of jihad, and the development of the art of rhetoric due to the difference in life, so ornate sermons appeared that included rhetorical and artistic styles such as alliteration, paronomasia and all the various rhetorical arts, all of which prompted me to address this art and attempt to research it through these brief pages in which I relied on writing in an improvised manner, taking into account the historical narrative based on the deductive method as well as the descriptive method by addressing the types of artistic prose in the era of Andalusia in its various temporal divisions, citing some sermons mentioned by some sources of Arabic literature, and I concluded in this study that the Andalusians developed prose discourse as a result of following the footsteps of the Easterners in writing while being keen on independence in that by following a unique method in the style of presentation and words.

Keywords: Discourse, Andalusia, prose, the time of the conquerors, the Almoravids, the Taifa kings, literary letters.

مقدمة

يعرف الخطاب النثري بأنه مظهر من مظاهر الحضـارة والرقي العقلي وأثر من أثار العناية باللغة، لما فيه من جودة العبارة وسلاسة الأسلوب، حتى يجد القارئ من اللذة مثلما يجد من يستمع إلى الشعر الجيد، فهو من مظاهر الجمال.

لقد اقتصـر في القرن الأول من دخول العرب الأندلس على "ما تقتضـيه الأحوال من الخطب والرسـائل الإدارية والسـياسـية لضـبط أمور الدولة وإشـعال الحماسـة في أرواح الجند، ولم تكن حينذاك الحياة مسـتقرة، فلم يسـاعد على نمو ملكة الكتابة الفنية في الموضوعات الخيالية والاجتماعية، فكانت الكتابة عربية في موضوعاتها الجزلة خالية من الصنعة والتكلف" [(1)].

ثم بعد ذلك يتضـح لنا اتسـاع المجال للنثر الفني فشمل الموضـوعات المعروفة لدى المشارقة، وابتكر الأندلسيون ما لم يكن شائعا هناك، فشملت رسائلهم مدح الخليفة والتهنئة والشوق والعتاب والوصف كوصف المحافل والمجالس والرياض والأزهار والأنهار والكواكب والتعازي والحكايات والقصـــص والمناظرات الخيالية بين بلدان الأندلس، وبين الســـيف والقلم، وكتبوا في التوسل إلى الله وإلى الرسول وكتبوا في التصوف والزهد والتقوى[(2)].

أنواع النثر الفني

للنثر الفني أنواع عديدة يمكن في هذا البحث تناول شيءٍ من التفصيل عنها.

النوع الأول: نثر الدواوين:

هو ما يصـدر عن الملوك والأمراء في تصـريف شـؤون أعمالهم، أو ما يصـدر عن الكاتب بإرشـادهم وتوجيههم، ومثل ذلك الخطابة التي كثرت في الأندلس منذ دخلها العرب فاتحين، فالعروبة والموهبة وفصـاحة اللسـان والذكاء وكثرة الحفظ والحرية التي كانوا يعيشـــون فيها، وحاجتهم إلى الخطابة في تحميس الجند والحث على الجهاد من أجل الفتح ثم النضـــال والمباهاة والفخر والانتصـــار، فقد اشـــتدت العصـــبية في عهد الولاة، ثم في أمور الاجتماع والســـياســـة في عصـــر الأمويين ثم في المحاضـرة والمناظرة وما إليها في عصـر الطوائف ثم في الدعوة إلى قتال الاسبانيين والمسيحيين الذين كانوا قد اتفقوا على طرد العرب من الأندلس في عصر بن الأحمر. [(3)]

وقد ظهر في الأندلس الكثير من الخطباء الذين داع صـيتهم وتحدث عنهم كبار المؤرخين، نذكر منهم عبد الرحمن الداخل، ومنذر بن سعيد، وطارق بن زياد، وابن أبي الخصال، وسهل بن مالك.[(1)]

ولقد كانت للخطابةِ الأندلسية منزلةٌ كبيرةٌ ومكانةٌ اجتماعيةٌ كبيرة للخطيب، وكانت ترفع صاحبها إلى أعلى المناصب وأسمى المراتب، ولذلك كان لقب الخطيب من ألقاب التشـريف والتعظيم وأضـيف كما أن هناك بعض التغيرات حدثت في الخطابة في العصر الأندلسي تبعًا لتغير الأزمنة ومنها.

- **أولاً: زمن الولاة الفاتحين:**

كانت الخطابةُ في هذا الزمنِ سـهلة التراكيب قليلة الاسـتعارة بعيدة عن الصـنعة والابتذال والتكلف، أما معانيها فكانت بعيدة عن تعمق الفلاســـفة والتكلف، وكان الفرض فيها يدور حول الدين من خلال الحث على الجهاد والصـــبر على منازلة الخطوب، وملاقاة الحوادث بصدرٍ رحب وقلبٍ مطمئن[(2)].

[(1)] النثر في حاضرة الأندلس، حسن البحيري ص12

[(2)] يرجع ذلك إلى أن الاندلس، من أجمل بقاع الأرض في جمال مناظرها الطبيعية الأشجار والانهار جارية وجبال خضرة وطيور مغردة وانعكس ذلك الجمال على كتاباتهم من شعر ونثر وهذب من خيالهم

[(3)] الأندلس والأدب، عادل السمحي، منشورات دار الفكر العربي بيروت 1997ص60

[(1)] الخطبة الأندلسية وتأثيرها في الأندلس، عمر فرج، منشورات دار الكتب العلمية بيروت 2002ص8

[(2)] الآداب الاندلسي التطور والتجديد* عبدالمنعم خفاجي، منشورات دار الكتب العلمية القاهرة 1999 ص 671-672.

- **ثانياً: زمن بني أمية وملوك الطوائف:**

دخل الخطبة الأندلسية في ذاك الزمن" الوحشي والصنعة حتى غلب عليها السجع غير أنه قليل التكلف، وغلبت عليها الاستعارة الدقيقة وكثر فيها الاقتباس "[3]وما إليه من مظاهر الكتابة ولم يكن في معانيها تعمق ولا صعوبة لأنهم كانوا إلى أدب العرب أقرب منهم إلى علم الفلسفة والمنطق، أما الأغراض فقد اتسعت حين كثرت العلوم وعنى الناس بدراستها والنظر فيها وزخرت بحور الحضارة وكثرت مناصبها فأبدع الخطباءُ وتعددت أغراض الخطابة، وقيلت في كل مكان هناك، في الدين والسياسة ومواقف المناظرة ومدارس العلم ولم تفارقها الدعوة إلى العصبية.

- **ثالثاً: زمن المرابطين والموحدين:**

أما في هذا الزمن فقد "ساءت حال الخطابة وضعف شأنها، فدخلتها العبارات الممقوتة الضعيفة والتكلف المبتذل من سجع غث واستعارة باردة، مع الاستغناء عنها بالكتابة في بعض الأمر، والاقتصار بها على ما يتصل بالدين من الجمعة والاملاك وما إلى ذلك، واستعيض عنها بالمنشورات والأوامر والمراسيم[1].

ويجدر بنا هنا الإشارة إلى المنذر بن سعيد البلوطي الذي له خطبة مأثورة مشهورة، قالها حين أصاب الأندلس في عهد الناصر لدين الله أمير المؤمنين قحط شديد، فرأى القاضي الفقيه الخطيب الواعظ الزاهد منذر بن سعيد البلوطي، أن يفزع الناس إلى ربهم طلباً للرحمةِ والسقيا، وأن يصلوا صلاة الاستسقاء، فدعاهم إلى أن يخرجوا حفاة إلى العراء، يسألون الله من رحمته وفضله، وتأهب البلوطي لذلك فصام ثلاثة أيام تنفلا ورهبة، واجتمع إليه الكثير من الأندلسيين للمصلى في جامع قرطبة، وأعتلى الخليفة سطح قصره أيضا ليشارك الناس في الدعاء، وخطب فيهم البلوطي وقال: "أيها الناس سلام عليكم، كتب ربكم على نفسه الرحمة، أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفورٌ رحيم، أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد، إن شاء يذهبكم ويأت بخلقٍ جديد، وما ذلك على الله بعزيز"[2].

وكانت من أبرز فنون الخطابة في ذلك الوقت المناظرات وكذلك الانتصار لرأي الانسان، كما شملت الدفاع عن النفس بالبليغ من الكلام.

ومن خلال ما سلف ذكره يمكننا القول أن العرب المسلمين كانوا على قلب رجل واحد، وكان قائد المسلمين كالمسلمين أو أشد منهم، يفيض حماسةً وقوة إيمان، وكانت الخطابة تهيئ لهم الطريق نحو الانتصارات والفتوحات لما في فيها من حث وترغيب وتحذير.

ومن روائع الخطب في حاضرة الاندلس خطبة القائد الفاتح طارق بن زياد التي قال فيها:

"أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الايتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لاوزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وأن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجروا لكم أمرا ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم، فدافعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمرا أنا منه بنجوة، ولا حملتكم على خطة، أرخص متاع فيها النفوس، إلا أبدا بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه والألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفر من حظي، وقد بلغتكم ما أنشأت عليه هذه الجزيرة من الخيرات العميمة".

---

[3] نفس المصدر ص588

[1] الأدب الاندلسي التطور والتجديد* عبد المنعم خفاجي ص187

[2] نفس المرجع ص155

ثم قال "وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا، ورضيكم الملوك هذه الجزيرة اصهارا وأختانا، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، والله ولي أنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين".

وقال فيها أيضاً "واعلموا أني أول مجيب على ما دعوتكم إليه، وإني عند ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا، اللهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون"[1].

وهكذا نرى أن الخطابة لها أهمية كبيرة، وشأن عظيم عند العرب في السلم والحرب، وأنها بمثابة العلاج النفسي الذي يدفع السامعين ويحثهم على القتال وبدل الهمم.

وأيضا من نثر الدواوين ما كتبه بدر مولى عبد الرحمن الداخل إلى سيده وكان قد هجره:

"آما كان جزائي في قطع البحر، وجوب القفر، والإقدام على تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى، غير الهجر الذي أهانني في عيون أكفائي، وأشمت بي أعدائي، وأضعف أمري ونهى عنك من يلوذ بي، وبتر مطامع من كان يكرمني، ويخدمن على الطمع والرجاء، وأظن أنا أعدائنا بني العباس لو وصلت بأيديهم ما بلغوا بي أكثر من هذا، فإن لله وإنا إليه راجعون"[1]

النوع الثاني: نثر الرسائل الخلقية والاجتماعية:

هذا النوع من النثر يدور حول البحث في شؤون الناس وأحوالهم، وما يجب أن يكونوا عليه من خُلقٍ فاضلٍ وعدلٍ ومحبةٍ وسلام، كما نرى ذلك في كتاب أحد أمراء الأندلس إلى بعض عماله حين قال:

"أما بعد، فلو كان نظرك فيما خصصناك به، ووهبنا لك، على حسب متواترك بالكتب، واشتغالك بذلك على مهم أمرك، لكنت من أحسن رجالنا عناء، وأتمهم نظرا، وأفضلهم حزما، فأقلل من الكتاب فيما لا وجه له، ولا نفع منه واصرف همتك، وفكرتك، وعنايتك إلى ما يبدو فيه اكتفاؤك ويظهر فيه عناؤك إن شاء الله".[2]

النوع الثالث نثر الرسائل الأدبية:

وهو ما يصدر عن الكتاب والأدباء، تناولاً لأغراض الشعر مع مدح عتاب وتهنئة ورثاء ووصف ونحوها، ومصوراً عواطف الناس وأهوائهم في حياتهم الخاصة والعامة، ومثال ذلك: أنه لما توفي السلطان أبوعبدالله محمد بن يوسف أول ملوك بني الأحمر منتصف جمادي الثاني من عام إحدى وسبعين وستمائة دفن بالمقبرة الجامعة العتيقة بسنام السبيكة، وقد كُتب على قبره منقوشا في الرخام.

"هذا قبر السلطان الأعلى، عز الإسلام، جمال الأنام، فخر الليالي والأيام، غياث الأمة، غيث الرحمة، قطب الملة، نور الشريعة، حامي السنة سيف الحق، كافل الخلق، أسد الهيجاء، حمام الأعداء، قوام الأمور، ضابط الثغور، كاسر الجيوش، قامع الطغاة، قاهر الكفرة والبغاة، أمير المؤمنين، علم المعتدين، قدوة المتقين، عصمة الدين، شرف الملوك والسلاطين، الغالب بأمر الله، المجاهد في سبيل الله، أبي عبدالله محمد بن يوسف بن نصر الأنصاري، رفعه الله إلى أعلى العليين، وألحقه بالذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وليرضى الله عنه وآتاه رحمة من لدنه عام واحدٍ وتسعين وستمائة، وكانت وفاته يوم الجمعة بعد صلاة العصر التاسع والعشرين لشهر جمادى الآخرة عام واحدٍ وتسعين وستمائة، فسبحان من لا يفنى سلطانه ولا يبيد ملكه ولا ينقضي زمانه، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

هذا محل العلى والمجد والكرم قبر الامام الهمام الطاهر العلم

لله ما ضم هذا اللحد من شرف ومن شيم علوية الشيم

---

[1] الأدب الأندلسي، محمد عمر خفاجي ص70-71

[1] الأدب الأندلسي، محمد عمر خفاجي ص601

[2] الخطبة الاندلسية، عمر فرج ص88

بالجود والباس ما تحوي صفايحه لا بأس عنترة ولا ندى هرم
مغنى الكرامة والرضوان يعهده فخر الملوك الكريم الذات والشيم
مقامه في كلا يومي ندى ووغى كالغيث في مجد وكالليث في أجم
مآثر تليث آثارها سوراً تقر بالحق فيها جملة الأمم
كأنه لم يسر في محفل لجب تضيق عنه بلاد العرب والعجم[1]

النوع الرابع: النثر الخيالي:

هو ذلك النثر الذي يرفه عن النفس، مما فيه من حلاوة القراءة في القصص الموضوعة، فمنه ما يتناول شرح الحقائق في أسلوب قصصي خيالي، كرسالة ابن شهيد المسماة بالتوابع والزوابع، التي تناول فيها جمهرة من الأدباء، فعرض صورا من شعرهم ونقدها، ومنه ما يتناول الأمور الخيالية كالمناظرة بين السيف والقلم، والمناظرة بين بلدان الأندلس، ومنه ما يتناول الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية على شكل قصصي.

النوع الخامس: شرح الحقائق في أسلوب قصصي خيالي

كذلك تعد رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي من أمثلة هذا النوع، فقد أراد ابن شهيد أن ينقذ نفسه ويظهر المستوى الذي يضع نفسه فيه بين الشعراء، وهو يستعرض أمام الشعراء لكي يشهدوا له بالإجادة وهو لهذا الهدف يعارض مختلف الشعراء، وأيضا يتنقل إلى تابعي الكتاب، في أسلوب قصصي خيالي[2].

فقد تخيل ابن شهيد أن له شيطانا ككل الشعراء، إتصل به وعرفه وسار به إلى العالم الآخر، فصار ينشدهم من شعره وينشدونه أشعارهم، وقد تخيل لكل شاعر شيطانا وجهة ينزل بها، ومنزلا يقيم فيه، فوصف هذه المنازل وصفا شعريا دقيقا، كما وصف مجالس هؤلاء الشعراء وأتى في أثناء وصفهم ومقابلاتهم على كثير من شعرهم نقداً بيانياً مبنياً على ما يعطيه اللفظ والعبارة من جمال وبلاغة، وكان أسلوب مسجوع، به الكثير من المحاكاة وما يشاع من أسلوب المقامات، وكثير من العبارات المتكلفة الغامضة، وهذا الأسلوب يمتاز عن غيره بأنه أسلوب قصصي من الأساليب النادرة في الكتابة العربية، وقد برع ابن شهيد في هذا النوع.

ومن نماذج نثره في هذه الرسالة قوله.." كان لي أوائل صبوتي هوى أشتد به كلفي، ثم لحقني بعض ملل في أثناء ذلك الميل، فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملل فجزعت وأخذت في رثائه فقلت:

تولَّى الحمام بظبي الخدور وفاز الرَّدى بالغزالِ الغريرِ

إلى أن أنهيته إلى الاعتذار من الملل الذي كان فقلت:

وكنتُ مللتُك لا عن قلىً ولاعن فسادٍ جرى في ضميري[(1)]

" فارتج على القول: فإذا بفارس بباب المجلس على فرس أدهم كأنما يقل وجهه، قد أتكأ على رمحه وصاح بي: أعجزت يافتى الإنس؟ فقلت: لا وأبيك، للكلام أحيان، وهذا شأن الإنسان، فقال قل بعده.

كمثلِ ملالِ الفتى للنَّعيم إذا دام فيه وحال السرور[(2)]

---

[1]– تاريخ الأدب في المغرب العربي، حنا الفاخوري، منشورا ت دار صادر، بيروت 2004، ص 182 وهذه الرواية والأبيات قد وردت أيضا حسب قول الفاخوري ومما تأكدت منه في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، لصاحبه لسان الدين ابن الخطيب، منشورات دار المنار، السعودية، تحقيق حسن الزاهد طبعة1999 ص14

[2]– محمد سعيد، ابن شهيد الاندلسي، منشورات دار الفكر العربي بيروت 1995، الطبعة 3، ص 265.

[(1)] ديوان ابن شهيد الأندلسي، حققه يعقوب زكي، راجعه محمد علي مكي، منشورات دار الكتاب العربي القاهرة1974، ص52

[(2)] – محمد سعيد، ابن شهيد الاندلسي، منشورات دار الفكر العربي بيروت ص116

فأثبت إجادته، فقلت: بأبي من أنت؟ فقال زهير بن نمير، من أشجع الجن، تصورت رغبة في اصطفائك، فقلت: أهلا بك أيها الوجه الوضاح، صادفت قلبا إليك مقلوبا، وهوى نحوك محبوبا، وتحاشا، وتذاكرت معه أخبار الخطباء والشعراء، ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع.[3]

أيضا يعد تناول الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية على شكل قصصي شائعاً آنذاك كما نرى في إحدى الكتابات وهي في وصف عبد الرحمن الداخل فراره من بطش العباسيين فقال:

"إنني لجالس يوما في ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بي، وابني سليمان، بكر ولدي يلعب بقدامي، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها، إذ دخل الصبي من باب البيت فازعاً باكيا، فأهوى إلى حجري فجعلت أدفعه لما كان بي، ويأبى إلا التعلق وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأنظر، فإذا بالروع قد نزل بالقرية، ونظرت فإذا بالرايات السود منحطة، وأخ لي حدث السن كان معي يشتد هاربا، ويقول لي النجاة يأخي.! فهذه رايات المسودة" فضربت بيدي إلى دنانير تناولتها، ونجوت بنفسي، والصبي وأخي معي، وأعلمت أخواتي بمتوجهي ومكان مقصدي، وأمرتهن أن يلحقنني ومولاى بدر معهن" [2].

النوع السادس النثر العلمي:

كان الأدباء لا يعدونه من النثر الفني، ولكن الأندلسيون لما أبدعوا التفنن في أساليبه، ونمقوا عباراته، صح أن يعد عندهم من النثر الفني.

ومن ذلك كتاب (ابن بسام) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " قال فيه "وأما ولادة التي ذكرها ابن زيدون في شعره، أنها بنت محمد بن عبدالرحمن بن عبيدالله الناصري، وكانت في نساء زمانها واحدة و أنها حضور شاهد، وغزارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر، يعشوا أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب وطهارة أثواب، على أنها–سمح الله لها وتغمد زللها طرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، ولقلة مبالاتها ومجاهرتها بلداتها– كتبت على أحد عاتقي ثوبها:

إني والله أصلح للمعالي وامشي مشيتي واتيه تيها

وكتبت على الآخر:

أمكن عاشقي من لثم خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها

وذكر بعد ذلك: أن أباها بويع يوم قتل عبدالرحمن المستظهر يوم السبت لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع عشرة وأربعمائة، فتسمى بالمستكفي بالله، وكان واهناً متخلفا ضعيفا، وكانت دولته تسعة عشر شهراً صعابا، نكداتٍ سودا، مشوهات مشئومات، ولولادة في مداعبة ابن زيدون، وكان له غلام اسمه علي:

إن ابن زيدون على فضله يغتابني ظلما، ولا ذنب لي

يلحظني شرراً إذا جئته كأنما جئت لأخصي علي [1]

وأيضا من النثر العلمي ما قاله أبوبكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل المتوفى سنة 571هـ، في رسالته المعروفة بالحكمة المشرقية أو "حي بن يقطان" التي جمع فيها بين الفلسفة والشريعة.

---

[3] ابن شهيد الاندلسي، محمد سعيد ص 572.

[2] الأدب الأندلسي التطور والتجديد، عبد المنعم خفاجي ص95

[1] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، تحقيق احسان عباس، منشورات الدار العربية للكتاب ليبيا، الطبعة الأولى 1979، المجلد4 ص54

" ثم تأمل في جميع أصناف الحيوان: كيف أعطى كل شيء خلقة، ثم هداه لاستعماله فلولا انه هداه لاستعمال تلك الأعضاء التي خلقت له في وجوه المنافع المقصـــودة به لما انتفع بها الحيوان، وكانت كلا عليه، فعلم بذلك أكرم الكرماء، وأرحم الرحماء"[2]

ومن النثر العلمي أيضا ما نراه في رسالة أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفيلسوف صاحب كتاب" الفصل في الملل والأهواء والنحل" وهي رســالةٌ رد بها على رســالة رجل يدعى أحمد بن الربيب القيرواني، وقد أثبت هذا في رســالته تقصير أهل الأندلس في تخليد علمائهم، ومآثر فضائلهم، وسير ملوكهم، فلما وقف ابن حزم على هذه الرسالة كتب رسالة طويلة منها.

" فأما مآثر بلدنا فقد ألف في ذلك أحمد بن محمد الرازي التاريخي كتبا جمة منها كتاب ضــخم ذكر فيه مســالك الأندلس، مراسيها وأمهات مدنها وأجنادها الستة، وضواحي كل بلد منها، وما فيه ليس في غيره، وهو كتاب مريح مليح"[3]

الأبعاد الفنية للخطاب النثري:

مما سبق ذكره يتضـح لنا أن الأندلسـيين يقتفون بأثر المشـارقة في أسـاليب الكتابة، لأنهم أئمتهم في صـناعة الكلام، وكان النثر أول عهد العرب بالأندلس ســهلاً جزلا، لا تكلف فيه، ولا أثر للصــناعة اللفظية إلا ما كان منها عفو، ولما ظهر ابن العميد وتلاميذه في الشرق، أخذ عنهم الأندلسيون طريقهم في الكتابة فغلب على نثرهم الصناعة اللفظية، والتزم فيه السجع، حتى أصبح من خواص النثر الأندلسي، وملأه بالتشبيهات والاستعارة والكناية وأشياء من المحسنات البديعة.

وامتازت الكتابة الأندلسية بمميزات اقتضـتها طبيعة البلاد وأحوال أهلها، وما حل بدورها ومنها كثرة الوصـف لمشـاهد الكون، مما قد يخرج الكاتب عن الغرض الذي يكتب فيه وكما نعرف أن الأندلس كانت مناظر خلابة، وذات طبيعة ســاحرة، لذلك كان الوصـف يغلب على طابع الكتابة عندهم، ومن ذلك ما نراه في كتابات ابن زيدون إذ يقول " عقد صـبره بيد الكرب إلى الزهراء ليتوارى في نواحيها، ويتسـلى برؤية موافيها، فوافاها والربيع قد خلع عليها برده ونثر سـوسـنه وورود، وأترع جداوله، وانطلق بلابلها، فارتاح جميل بوادي القرى، وراح بين الروض يانع وريح طيبة الشرى"[1].

لقد غلب الخيال الشـعري على معانيهم، وذلك من آثار البيئة وجمالها، و"كانت مجالس الأدب في الأندلس من أكبر مسـارح الأفكار، وأضـــخم مظاهر الجمال، وأظهر مظاهر الحياة العقلية والاجتماعية، فكانت تحفل بأنواع الأدب، وألوان الطرب، وافانين اللهو والسمر، وكان الشعر فيها نشوة الشارب، وغناء الراقص، ولغة الكؤوس، وأدب النفوس"[2].

كما كثرت المناظرات والمحاولات الخيالية بين الســيف والقلم والربيع والخريف، والمدن والأنهار، ومن ذلك قول ابن برد في المحاورات بين الورد وغيره من الأزهار كما ورد في كتاب الأندلس والأدب وهو نص نثري لابن زيدون يقول فيه.

"اليوم يوم بكت أمطاره، وضـحكت أزهاره، وتقنعت شـمسـه، وتعطر نسـيمه، وعندنا بلبل أزح وسـاق غنج، وسـلافتنا سـلافة أخدان، سلافة دنان، قد تشاركنا في الطباع واشتركنا في الإثارة السرور فأخرق إلينا سرادق الدجى، تجد مرأي لا يحس إلا لك، ولا يتم إلا بك، الزيارة بالليل" أخفى، وبالزائر والمزور أحفى"[3].

وأيضا التزموا الإطناب وقلة الغلو والمبالغة وكتابتهم كانت عربية في موضوعاتها، وفي أساليبها، وعباراتها الجزلة الرصينة، فكانت خالية من الصنعة والتكلف، ومن ذلك ما كتبه بدر مولى عبد الرحمن الداخل إلى سيدٍ هجره[3].

---

[2] فصول في الأدب الأندلسي، حكمة علي الأوس ص18

[3] الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد علي صبيح، الجزء الثاني ص74

[1]– دراسات في الأدب الأندلسي، إحساس عباس وآخرون، دار العربية للكتاب، تونس، ص 182.

[2]– الأدب الأندلسي التطور والتجديد، عبدالمنعم خفاجي. ص571

[3] الأندلس والأدب، عادل السمحي ص26

[3]– ينظر في ذلك كتاب محمد خفاجي، الأدب الأندلسي التطور والتجديد ص 28.

وأما أغراضـها فيمكن القول أنها تناولت أغراض المشـارقة، وتعددت بتعدد أعمال الدواوين، وبما زاد على الرسـائل الإخوانية من إســـتعمالها في الهجاء والمفاخرة، وما إلى ذلك، بل زادت على ذلك، وأكثر ما نجد ذلك في المناظرة والمفاخرة والجد والهزل والخيال الفســيح، كل ذلك راجع إلى الجمال الإقليمي البديع الذي ينبت الخيال ثم يغذيه فينميه، حيث نراه متجليا في كل شـــيء حتى في بيان الحقائق العميقة، يقربونها من العقول، في تصـــوير ممتع رائع، كما في رســـالة "حي بن يقطان"، وكان لزهدهم في علوم الفلســـفة أثر في جعل كتاباتهم فطرية بعيدة عن التعميق[1]، بل كانت تظهر في ثوب مهذب عربي خالص.

الخاتمة

يعدّ النثر واحدًا من أشكال الكتابة المعتمدة عند العرب منذ القدم، ويرجح العلماء أنه سابق على نظم الشعر، ذلك أن العرب كانت تستخدم الجملة العربية الفصيحة في حياتهم للتعبير عن حاجاتهم وفي خطاباتهم أيا كان شكلها، إضافة إلى أن نظم الشعر كان يحتاج إلى متخصصين، فليس العرب جميعهم شعراء، بينما يستطيع جميعهم التعبير بعبارات وكلمات نثرية في ميادين الحياة المختلفة، ومرت الفنون النثرية بتطورات كبيرة نتيجة للاختلاف في العصور، حاولت تناول بعض ذلك في هذه الدراسة أو البحث

وفي ختام هذه الدراسة يمكن وضع نتائجها كالتالي:

1. العرب أمة بلاغة وشعر بطبيعتها كانت تعظم البلاغة الشعر وترفع من مكانتهما حتى قال الخليل بن أحمد في الشعراء (أمراء الكلام) ولعل هذا ما كان سبباً في قلة الاهتمام بالنثر خصوصاً في العصور العربية الأدبية الأولى.
2. ومع تطور التفكير المنهجي للعرب بالأمم الأخرى تزايد اهتمام الشخصية العربية بالنثر في مجال الإبداع الإنساني وبدأ يأخذ طريقه إلى حلبات المنافسة ومضامير السباق.
3. في الأندلس كان النثر مثار اهتمام العرب حتى كاد يطغى على الشعر في بعض الأحيان ولعل من أهم أسباب ذلك اهتمام حكام الخلافة والملك بالكتابة وأهلها، ومع هذا يظل القول بأفضلية النثر على الشعر في الأندلس قولاً جريئاً وحكماً يحتاج إلى كثير من التوقف والتمحيص.
4. كان الأندلسيون يقتفون أثر المشارقة في أساليب الكتابة.
5. امتازت الكتابة الأندلسية بمميزات حاولوا من خلالها الخروج من عباءة المشارقة وإنتهاج منهج يتسم بالاستقلالية ومن هذه المميزات.

أ. كثرة الوفود لمشاهدة الكون.

ب. كثرة المناظرات والمحاور الخيالية.

ومن هذا نتوصـــل إلى أن النثر لم يلق دراســـات كافية، ربما كان الســـبب في ذلك قلة المصـــادر والمراجع التي تهتم بهذا الجانب.

والله ولي التوفيق

المصادر والمراجع

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، تحقيق احسان عباس، منشورات الدار العربية للكتاب ليبيا، الطبعة الأولى 1979.

(2) ديوان ابن شهيد الأندلسي، حققه يعقوب زكي، راجعه محمد علي مكي، منشورات دار الكتاب العربي القاهرة1974.

[1]– نفس المصدر ص65.

(3) الإحاطة في أخبار غرناطة، لصاحبه لسان الدين ابن الخطيب، منشورات دار المنار، السعودية، تحقيق حسن الزاهد طبعة1999.

(4) الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد علي صبيح، منشورات مكتبة السلام العالمية 1964 م.

(5) الأندلس والأدب، عادل السمحي، منشورات دار الفكر العربي بيروت 1997م.

(6) الخطبة الأندلسية وتأثيرها في الأندلس، عمر فرج، منشورات دار الكتب العلمية بيروت 2002م.

(7) الآداب الاندلسي التطور والتجديد* عبدالمنعم خفاجي، منشورات دار الكتب العلمية القاهرة 1972م.

(8) تاريخ الأدب في المغرب العربي، حنا الفاخوري، منشورا ت دار صادر بيروت2004م.

(9) ابن شهيد الاندلسي، محمد سعيد، منشورات دار الفكر العربي بيروت 1995م.

(10) فصول في الأدب الأندلسي، حكمة علي الأوس، منشورات جامعة دمشق 2007 م.

(11) دراسات في الأدب الأندلسي، إحساس عباس وآخرون، دار العربية للكتاب، تونس 2001م.

(12) الأدب الأندلسي التطور والتجديد، محمد خفاجي، دار الكتب العلمية القاهرة1990م.

(13) النثر في حاضرة الأندلس، حسن البحيري، دار صادر بيروت 1989م.